الباب الأول

شوقى الإنسان فى مديحه ورثائه

برغم ما يلغه شوقى من رفعة شأن فى باب الشعر الذى حمل معظم شعراء عصره على مبايعته أميرًا عليهم ، فإن أقلاماً كثيرة كانت تناوشه وترتقب له سقطة هنا أو هفوة هناك ، لتشرع أسلحتها الحادة فى سبيل الانتقاص والتعريض لهذا الصرح الشامخ الفريد .

وشوقى برغم كل ما آتاه الله من عبقرية فذة ـ رفعته على من سبقه وعلى من أتى من بعده من الشعراء فإنه كان يتأذى غاية الأذى من نقد شعره .

وليته كان يغمض عينيه عن ذلك ـ فإن من شأن النفوس الحاقدة أن تنفس على من حباه الله بكل هذه النعم ـ ويتعالى عن أن يدخل معها فى سجال أو جدال .

وكان شوقى يضيق وينفد صبره فمن كانوا يعيبون عليه كثرة رثائه أومديحه أو تهانئه . وكيف يصح فى الأذهان ـ أن شخصية فى مثل مقام شوقى ـ عاصرت وعايشت وصادقت الملوك والقادة وذوى الجاه والمفكرين والكتاب والمخترعين والشعراء والعظماء فى كل فن ، ممن اختصهم الله بقدرات تميزهم على سائر

البشر ، أن يسكت إن صادف أحدهم نجاح يستأهل التهنئة ، أو ألم بأحدهم مكروه يتزعج من أجله قلب شوق الرهيف ، نقول كيف يسكت عن النظم مهنئاً أو مواسياً أو مادحاً عملا جليلا نبيلا ، عندما ينتهى إلى علمه أنباء هؤلاء ممن أحبهم من عشرائه ومن اختصهم بحبه ، إذا ما حرمه الزمن من رقيق وفائهم ورقيق معشرهم إذا ما فارقوا الحياة ، إن سكوته عن ذلك هو العجب وهو العقوق الذى يستحق أن يؤاخذ عليه ، وأن يكون موضع النقد والتجريح ، لا أن يكون موضعاً للطعن والانتقاص نقول ، كان كثير من النقاد ، يتلمسون مثل هذه التهانى أو الرثاء ليبدأوا هجومهم . وكان شوق يضيق ذرعاً بمن يعيبون عليه كثرة رثائه وتهانئه وكان من حقه أن يتبرم ويتذمر من هؤلاء الذين لم يرضوا عنه إن هو رثى أو يرتضوا قيامه بتهنئة أو مديح .

وكان فى هذا الموضع ، ينطق بحكمة الفلاسفة ، ومنطق المناطقة ، عندما يقول ، إنه إذا كان يعاب على مديحه للعظماء ، ارتقاباً لرفدهم ، وترلفاً لجاههم عسى أن يلحقه من وراء ذلك نفع أو فائدة ، فما الذى يناله ممن ارتحل وترك الدنيا وما فيها ومن عليها . ثم يردف ذلك بقوله : إن من لا يبقى للموتى ، لا يبقى للأحياء . ثم ينظم شعرًا فى الرد عليهم ، منه :

يقولون يرثى الراحلين فوبخهم ... أأملت عند الراحلين الجوائزا
أبوا حسدًا أن أجعل الحى أسوة ... لهم ومثالا قد يصادف حاذيا

ولكنهم عادوا من طريق آخر يقولون ، عندما رثى سعيد زغلول ابن أخت الزعيم سعد زغلول ، إنه إنما رثاه تملقاً وزلفى لسعد . ولكنه لم يسكت على هذه الفرية والاتهام الجديد ، لأنه كان يصدر فى ذلك عن حب وتقدير وتأييد للزعيم

سعد زغلول . ودفعه هذا النقد الذى جانب الحق والذوق والعدل إلى أن يقول فى قصيدة يرد على شانئيه بقوله :

وأنا المرء لم أر الحق إلا كنت من حزبه ومن عماله
رب حرٍّ صنعت فيه ثناء عجز الناطقون عن تمثاله

وكانت تهانى ومراثى شوقى ، لا تخلو من الحكمة ومن الموعظة ومن الوفاء ومن البلاغة ومن الرقة النابعة من شعور فياض بالمحبة والتقدير والتقديس للموت الذى هو آية الله العزيز الحكيم الذى لا غالب له .

كان من أحبائه ومن جلسائه المخلصين ومن أهل الأدب والفن والتعمق فى فن الموسيقى والغناء ، المرحوم حسن بك أنور ، أحد الأعضاء المؤسسين لنادى الموسيقى الشرقى . وقد توفى عام ١٩٣٠ . وكان متخصصًا فى الموشحات والتراث .

حزن عليه شوقى حزناً بارحاً ، فقد كان سميره وأنيسه وجليسه . ولما بلغه نبأ وفاته كان حزنه عليه حزناً مشوباً بالحسرة على ذهاب أمثاله ممن يرجى على يديهم الخير والنفع .

وقال فى رثائه :

تسائلنى (كرمتى)[1] بالنهار وبالليل : أين سميرى (حسين) ؟
وأين النديم الشهى الحديث وأين الطروب اللطيف الأذن

(١) (كرمتى) يقصد بها داره التى أطلق عليها اسم (كرمة ابن هانئ) .

نجى البلابل فى عشها وملهمها صبية فى الفنن
فقلت لها مات واستشعرت ليالى السرور عليه الحزن
وما هو ميت ولكنه بشاشة دهر محاها الزمن
ومعنى خلا القول من لفظه وحلم تطاير عنه الوسن

* * *

وعندما بلغه نبأ رحيل الزعيم سعد زغلول ، عام ١٩٢٧ وفى شهر أغسطس من ذلك العام ، كان شوقى رحمه الله يصطاف فى (زحلة) بجبل لبنان وهى التى نظم فيها قصيدة « يا جارة الوادى » التى شدا بها الموسيقار محمد عبد الوهاب .

وكان سعد رحمه الله يعانى من مرض الحمرة ، وكانت وفاته متوقعة ، وكان المصطافون فى هذه المدينة ، وكنت وعائلتى من بينهم ، ننتظر صحف مصر التى تصل فى اليوم التالى من صدورها . ولم تكن هناك من إذاعة أو تيلكس ، وفى اليوم الذى حدثت فيه الوفاة ، كنا وجوماً وكان شوقى يذرع (تيراس) الفندق فى عصبية ، حيث كان قد علم من أحد القادمين من مصر ضعف الأمل فى شفاء سعد ، وانتشر الخبر بيننا ، وفى اليوم التالى وردت الصحف وفيها النبأ الأليم ولم تمض أيام حتى بعث شوقى إلى صحيفة الأهرام برثاء سعد فى قصيدة تعد من درر ما نظم فى الرثاء ، كان مطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتنى فى الركب لما أفلت (يوشع) همت فنادى فتناها
جلل الصبح سواداً يومها فكأن الأرض لم تخلع دجاها

ثم يمضى ليقول :

سائلوا (زحلة) من أعراسها[1] هل مشى الناعى عليها فمحاها
عطل المصطاف من سماره وجلا عن ضفة الوادى دماها
فتح الأبواب ليلا (ديرها) وإلى (الناقوس) قامت بيعتاها
يحمل الأنباء تسرى موهنًا كعوادى الثكل فى حر سراها
عرض الشك لها فاضطربت تطأ الآذان همسًا والشفاها
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم كل نفس فى وريديها[2] رداها

(١) عرائسها .
(٢) أى فى شريانيها .